إيبارشية جنوبي أمريكا للأقباط الأرثوذكس

الرسالة الشهرية لزوجات الآباء الكهنة فبرايـر ٢٠١٥ م

حرب السيـطرة

رأى أحد القسوس الأمريكيين ويدعى ريك جوينر رؤية عن السماء وسجل ما رآه في كتابه الشهير "التكليف الأخير". واحدة من الأمور العجيبة التي رآها في رؤياه مقابلته لقس شهير كان قد توفى هو وزوجته. لقد دخل كل منهما معه في حوار كشفا له فيه الكثير عن كيف كانت علاقتهما على الأرض كقس وزوجته.

حينئذ تقدمت امرأة لم أعرفها. إمرأة غاية في الجمال والنعمة، لكن جمالها لم يكن حسياً أو مغوياً..

ابتدرتني قائلة: " أنا زوجته. **وقد كنت المصدر الحقيقي لأكثر ما عرفته أنت عنه.** سأقول الآن ليس عنه بل عنا. إنك تستطيع أن تصلح الكنيسة دون أن تصلح نفسك. يمكنك أن تسطر أعظم صفحات التاريخ بينما تفشل في عمل مشيئة الآب وفي تمجيد ابنه. لو أنك كرست جهودك لتصنع التاريخ فقد تنجح في هذا، لكنه يبقى إنجازاً زائلاً سرعان ما يتبخر كخيط دخان".

قبلت معترضاً: "لكن أعمال زوجك وأعمالك كان لها أعظم تأثير في كل الأجيال التالية وإلى الأبد. يصعب عليّ أن أتخيل الظلمة التي كان العالم سيغرق فيها لو لم يظهر زوجك".

" هذا القول حقيقي، لكنك تستطيع أن تؤثر في العالم حقاً وتقود إلى مقاصد الله الأبدية الباقية في حال واحدة فقط: إذا احتفظت بنقاوة نفسك. **لقد خسر زوجي نفسه من أجلي، واستطاع أن يربحها فقط قبل نهاية حياته، لأني كنت قد أُخذت من الأرض لتتاح له هذه الفرصة. لقد عمل أكثر أعماله لي أنا لا للرب. لقد كنت أحركه وأمنحه كثيراً من المعرفة التي كان يعلم بها. لقد استخدمته كامتداد لذاتي لأنه لم يكن ممكناً لي أن أنال التقدير كقائدة روحية من حيث كوني امرأة في ذلك العصر. لقد إستعرت حياته حتى أعيش حياتي من خلاله. وسرعان ما صار يعمل كل أعماله فقط ليثبت ذاته لي".**

فقلت موجهاً كلامي للرجل: "لابد أنك كنت تحبها كثيراً "

" كلا لم أحبها على الإطلاق. ولا هي أحبتني. في الواقع بعد مضي سنوات قليلة على زواجنا، تلاشى حتى إعجابنا الواحد بالآخر. **لكن كل منا كان يحتاج الآخر، من ثم وجدنا طريقة للتعاون معاً. لم يكن زواجنا نير الحب بل نير القيود.** وكنا كلما زاد نجاحنا زادت تعاستنا، وزاد مقدار الخداع الذي نستخدمه لنضلل تابعينا. قرب نهاية حياتنا وصلنا إلى حالة سيئة من الشقاء والفراغ. كلما زاد التأثير الذي تكتسبه بترقيتك لذاتك كلما زاد الجهاد الذي تحتاجه للحفاظ على هذا التأثير، وكلما صارت نفسك مظلمة. لقد كانت الملوك تخشانا، لكننا نحن أنفسنا كنا نخاف كل الناس من الملوك إلى الرعاع. لم نستطع أن نثق في أي إنسان لأننا كنا نحيا بالخداع. لم نستطع حتى أن نثق في بعضنا البعض. لقد كنا نعظ بالحب والأمانة لأننا أردنا كل الناس أن يحبونا ويثقوا بنا. لكن نحن أنفسنا خفنا من كل الناس واحتقرناهم في قلوبنا. لو أنك وعظت بأعظم الحقائق ولم تعشها، فإنك في الواقع أعظم المرائين، وأشقى المعذبين".

ابتدأت كلماتهما تضربني كالمطرقة ورأيت أني أنا نفسي كنت أسير في ذات الإتجاه. كم وجهت طاقتي لترقية ذاتي لا لتمجيد المسيح. وابتدأت أرى كم من الأعمال عملت لأثبت ذاتي

للآخرين، لا سيما من لا أعجبهم ومن رفضوني، أو من شعرت تجاههم بالمنافسة. وبدأت أرى أي قدر كبير من حياتي مبني على واجهة مزيفة أخفي وراءها حقيقة نفسي. لكني في هذا المكان لا أستطيع الإختباء. هذه السحابة العظيمة من الشهود تستطيع أن تراني كما أنا من خلف أية واجهة من الدوافع الطيبة التي أدعيها.

نظرت ثانية إلى ذينك الزوجين. إنهما الآن في غاية الصراحة والنبل بصورة تنفي أي شك حول دوافعهما. لقد كانا بكل سرور يكشفان حتى أسوأ خطاياهما لأجل فائدتي، مملوئين بالفرح الصادق وهما يتكلمان.

قلت بصوت أسيف راجياً من كل قلبي أن أتذكر كل حرف من كلامهما:" قد أكون أخذت مفهوماً خاطئاً عنك من خلال تاريخك أو كتاباتك، لكن المؤكد أني الآن أكن لك تقديراً أكبر. ليتني أحمل معي من هذا المكان ذلك الكمال والحرية التي تتمتعان بها الآن. لقد تعبت من محاولتي أن أعيش في إطار صورة غير حقيقية اختلقتها لذاتي. كم أتوق إلى هذه الحرية".

حينئذ قدم المصلح الشهير تحريضه الأخير قائلاً: " لا تحاول أن تعلم الآخرين ما لا تعمله أنت فالإصلاح ليس عقيدة فحسب. إن الإصلاح الحقيقي يأتي من الاتحاد بالمخلص. عندما ترتبط بالمسيح تحت نير واحد حاملاً ما يضع عليك من أحمال سيكون حينئذ المسيح معك حاملاً أحمالك. **إنك ستكون عاملاً عمل الرب في حالة واحدة فقط وهي أن تكون عاملاً معه، ليس فقط عاملاً لأجله.** لا يستطيع أن يلد ما هو روح سوى الروح. ولو أنك تحت نيره لن تجد نفسك عاملاً لأجل السياسة أو التاريخ. فأي شيء تعمله تحت ضغط السياسة أو الفرص المواتية سيكون نهاية لخدمتك الحقيقية. والأشياء المعمولة في محاولة لصياغة التاريخ في أفضل الأحوال سوف تقصر إنجازاتك على كتب التاريخ بينما تفشل في التأثير على الأبدية. إن لم تعشق ما تعظ به تجرد نفسك من دعوتك الأبدية كما عملنا نحن. سأقول لك ما يحفظ رجليك في سبيل الحياة: أحب المخلص وأطلب مجده وحده لأن كل ما تعمل لترقية ذاتك سيؤدي بك يوماً إلى أسوأ الهوان. وكل ما تعمل بدافع من محبة صادقة للمخلص، لتمجيد اسمه، سيؤدي إلى امتداد ملكوته الأبدي، وفي النهاية إلى مكانة أعلى لك. تذكر أن تعيش لما يُسجل في كتب السماء ولا تكترث مطلقاً بما يُسجل في كتب الأرض".

عند هذا رحل الزوجان بينما غمرني ثانية إحساس بخطيتي: المرات التي استخدمت فيها الناس لأغراضي الخاصة، أو التي استخدمت فيها حتى اسم الرب لأعزز طموحي الذاتي، أو لأبدو أفضل مما أنا. ابتدأت تلك الذكريات تتساقط كالشلال فوق رأسي. والذي جعلها منفرة لا تُحتمل أنها جاءتني هنا في هذا المكان حيث أشاهد قوة ومجد ذاك الذي استخدمت اسمه. فسقطت على وجهي في أسوأ حالة من اليأس مرت عليّ. ثم بعد مضي ما بدا أنه أبدية من الوقت الذي أرى فيه هؤلاء الأشخاص وتلك الأحداث من حياتي شعرت بيد زوجة المصلح الشهير وهي تقيمني على قدمي. غلبتني طهارتها لا سيما وأنا أشعر الآن بفسادي وشري. وشعرت بدافع لا يقاوم للسجود لها لأنها طاهرة.

فقالت بلهجة شديدة: "إلتفت إلى الابن. إن رغبتك أن تسجد لي أو تسجد لأي شخص آخر في هذا الوقت ما هي إلا محاولة للهرب من تركيز انتباهك على ذاتك وتبرير ذاتك بخدمة الآخرين. إنني الآن طاهرة لأني إلتفت إلى الرب. لقد كنت تحتاج لأن ترى فساد نفسك ليس لكي تسكن داخل نفسك أو لكي تسعى لتبرير نفسك بأعمال ميتة بل لكي تلتفت إليه".

قالت هذا بمحبة صادقة يستحيل معها أن أنجرح أو أنزعج من كلامها. ولما رأت أني أفهم أكملت قائلة:

" ما رأيته فيّ من طهارة هو ما رآه زوجي فيّ لما كنا صغيرين. **كنت في ذلك الوقت نقية في دوافعي بصورة نسبية، لكني أفسدت محبته لي وطهارتي بسماحي له أن يعبدني.** لا يمكن

للإنسان أن يصير طاهراً بمجرد عبادة من هم أطهر منه. لابد أن تتجاوز الناس لتجد ذاك الذي جعلهم طاهرين، والذي فيه وحده لا توجد خطية. **كلما كان الناس يمتدحوننا وكلما كنا نقبل مديحهم كلما انجرفنا أكثر عن طريق الحياة.** بعد هذا بدأنا نعيش لمديح الناس ولكي نمتلك سلطاناً على من لا يمتدحوننا، وفي هذا كان خرابنا وخراب الكثيرين ممن تراهم في هذا المكان".

سألتها – راغباً فقط في إطالة الحديث – "أهو صعب عليكما أن تكونا معاً ههنا؟"

" كلا. عى الإطلاق. إن كل علاقاتك على الأرض تستمر في السماء وتتنقى بالدينونة وبحقيقة أنها الآن علاقات روحية لأننا أرواح هنا. كلما غفر لك أكثر كلما أحببت أكثر. بعدما غفرنا لبعضنا البعض أحببنا أحدنا الآخر أكثر. والآن تستمر علاقتنا بعمق أعظم وغنى أكمل لأننا وارثين معاً لخلاص الرب. وبقدر عمق الجروح التي جرحنا بها أحدنا الآخر استطاع الحب الآن أن يتعمق بعد أن شفينا. **لقد كان بإمكاننا أن نختبر هذا الأمر على الأرض لكننا لم نتعلم الغفران في حينه. لو أننا تعلمنا الغفران لما تأصلت فينا المنافسة التي تسللت إلى حياتنا وحرفتها عن الطريق.** عندما تحب حباً حقيقياً تقدر أن تغفر غفراناً حقيقياً. وبقدر ما يكون الغفران صعباً عليك تكون قد ابتعدت عن الحب الحقيقي. إن الغفران جوهري لحياتك وإلا تعثرت وضللت وضللت في سبل كثيرة عن الطريق المختار لك".

في هذا الوقت أدركت أن هذه السيدة التي وضعتني في مواجهة مؤلمة مع فسادي كانت أيضاً أكثر من قابلت جاذبية في حياتي. لم تكن جاذبية رومانسية، لكني شعرت أني لا أريد أن أبتعد عنها. حينئذ رجعت خطوة للخلف مؤذنة بالمغادرة ثم قدمت لي نصيحة أخيرة وقد قرأت ما يدور في ذهني:

"إن الحق النقي عندما يقال بدافع من الحب النقي دائماً سيكون جذاباً. سوف تتذكر ما تعرضت له من ألم هنا وسوف يساعدك هذا بقية حياتك. إن الألم حسن فهو يرشدنا إلى مكان المشكلة. إن الحق الإلهي دائماً يجلب ألماً حينما يلقي الضوء على ما لدينا من مشاكل، لكن حقه أيضاً يرينا دائماً طريق الحرية. عندما تعلم هذا الأمر سوف تبتهج حتى في الضيقات التي يسمح بها الله ليحفظ رجليك في طريق الحياة".

" أيضاً انجذابك لي ليس شيئاً في غير محله. إنه أمر طاهر في صورته الحقيقية التي صنعها الله. **عندما يقترن الحق النقي بالحب النقي يستطيع الرجال أن يعيشوا قصد الخالق من وجودهم دون محاولة لسيطرة نابعة من عدم أمان. وتستطيع النساء أن يعشن القصد من خلقهن لأن الحب حل محل مخاوفهن. والحب لا يتلاعب ولا يؤثر على الآخرين بطرق غير قويمة ولا يسعى للسيطرة بدافع من عدم الأمان. لأن الحب يطرح الخوف إلى خارج.** في ذات الدوائر التي يمكن أن تكون فيها العلاقات فاسدة، في هذه الدوائر بالذات يمكن أن تصير مشبعة بعدما يعمل الفداء عمله فيها. عندما يتجدد ذهنك من قبل روح الحق لن ترى فيما بعد العلاقات مع الآخرين كفرصة للأخذ بل للعطاء. إن العطاء يمنح أقصى إشباع يمكن أن نعرفه. وأروع العلاقات الإنسانية ليست سوى بخار زائل أمام النشوة التي نحصل عليها عندما نعطي ذواتنا للرب في عبادة نقية. ما نختبره في العبادة هنا لا يستطيع جسدك الهش غير الممجد أن يحتمله الآن. **إن العبادة الحقيقية لله تطهر النفس وتعدها لأمجاد العلاقات الحقيقية. من ثم لا ينبغي أن تطلب العلاقات بل إسعَ للعبادة الحقيقية. بعدها فقط تأخذ العلاقات شكلها وحجمها الصحيح في حياتك. الحب الحقيقي لا يسعى أبداً لأن يكون أولاً أو لأن يسيطر، بل بالحري يأخذ مكان من يخدم. لو أني وزوجي حفظنا هذا في زواجنا لكنا نجلس بجوار الملك الآن، ولإمتلأت هذه الساحة بنفوس أخرى كثيرة".**

بهذه الكلمات اختتمت حديثها واختفت بين صفوف القديسين الممجدين.